

Palestinian Political Prisoners: Identity and Community

Esmail Nashif

London and New York: Routledge 2008. 232 pages

بعد سنة 1948. ويستند الناشر في تحليله إلى أعمال كتاب ما بعد بنويين، وما بعد حدثيين، وما بعد كولونياليين، وماركسيين، بينهم جان جينيه، ولوي ألتوسير، وإيتيان باليار، وهومي بابا، وميشال فوكو، وبيير بورديو، وفرانز فانون. وهذه الكوكبة من الكتاب المتباينين نظرياً تعكس درجة من الحذق والإحكام تمكن كاتبنا من أن يصل إليها. لكن، كان في الإمكان طرح مشكلة تهمّ القارئ العادي غير المعتاد على مثل هذه الكتابات. ثم إن كتاباً يبلغ سعر نسخته المجلدة 120 دولاراً يصعب أن يتيسر لعدد كبير من القراء.

وما يلفت انتباهي هو غياب أي كتابات عربية أكاديمية الطابع، أكانت فلسطينية أم غير ذلك، تنظر المكانة التي يحتلها السجن في الحياة الفلسطينية والعربية. غير أن هنالك عدداً من النصوص الثانوية التي يحلها الناشر في كتابه، والتي كتب معظمها سجناء فلسطينيون. فعلى سبيل المثال، يبدي اهتماماً خاصاً بكتابات أحمد قطامش الماركسية، وخصوصاً البيان الذي أصدره في سنة 1994 بعنوان: "مداخل لصياغة بديل"، وهو عرض برنامجي لطرائق التغلب على حياة السجن، وكذلك كتابه الصادر في سنة 1995: "لا، لن أليس عباءتك: صفحات من تجربتي في أقبية التحقيق".

يُظهر السجناء السياسيون الفلسطينيون أن السجن غداً نوعاً من الأكاديمية، حيث يتعلم السجناء الأميون القراءة والكتابة، بمساعدة سجناء آخرين، وحيث تصبح القراءة والكتابة النشاط الأساسي الذي يمكنهم من بناء ضربٍ من الهوية الجماعية. وبذلك يغدو السجن، على مستوى ما، مؤسسة للتأهيل تجعل "سردية الأسرى سرديّة دخول في التاريخ كفاعلين لا كضحايا" (ص 36).

يشكل الاتصال داخل السجن وبالعالم الخارجي واحداً من الأنشطة المركزية في حياة السجن. ولأن الحرمان وندرة "الثقافة المادية" يميزان هذه الحياة، كان لا بد للسجناء من أن يطوروا وسائل اتصال تواجه سطوة السجن. ومن الوسائل التي يسرت الكتابة والنسخ والنصوص الدوارة في الداخل والخارج أشد التيسير ما يدعى الكبسولة، التي "غدت شيئاً فشيئاً أهم وسيلة لنقل المعلومات داخل السجن وخارجه" (ص 59). والكبسولة مستمدة من الأصل الإنكليزي "Capsule"، وهي عبارة عن

تشير أرقام موثوقة إلى أن هناك الآن أكثر من عشرة آلاف معتقل فلسطيني من الأراضي المحتلة في السجون ومراكز التوقيف الإسرائيلية، بينهم من لم يتجاوز العاشرة. والشكوى من التعذيب وسوء المعاملة هي من الأمور الروتينية التي تسجلها تقارير منظمات حقوق الإنسان المحلية والدولية. ويمكن أن يفرض إلقاء حجر على جندي من جنود الاحتلال، أو على جدار الفصل، إلى حكم بالسجن عشرين عاماً.

بين سنتي 1967 و1993، وهي الفترة التي يُعنى بها كتاب إسماعيل الناشر: "السجناء السياسيون الفلسطينيون: الهوية والجماعة"، دخل إلى السجون نحو ربع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بين وقت وآخر. وعموماً، فإن عدد السجون التي تؤوي السجناء الفلسطينيين هو اثنان وعشرون سجناً، بعضها قديم منذ عهد البريطانيين. ويحتل السجن موقعاً مركزياً، وإن يكن مُحيطاً، في حياة الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الحكم الإسرائيلي. وقد دفعت هذه الحقيقة المؤسفة إسماعيل الناشر، وهو عالم اجتماع يدرّس في جامعة بيرزيت، إلى سدّ فجوة في الأدبيات التي تتقصّى تجربة "الأسرى السياسيين" الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. ويكاد بحث إسماعيل الناشر، الذي يعنى بالسجناء الذين اعتقلوا خلال الانتفاضة الأولى من سنة 1987 إلى سنة 1989، يكون مقصوراً على الأسرى السياسيين الذكور العلمانيين الذين سجنوا قبل صعود الحركة الإسلامية في شكلها الحالي. فهو لم يقابل من السجينات إلا واحدة، ولذلك، فإن الإشارة إلى النساء في المشروع الوطني الفلسطيني غالباً ما تبرز في سياق هيمنة كتابات الذكور وتجاربهم. ولقد بدأ الناشر عمله الإثنوغرافي الميداني في سنة 2002 بمقابلة سجناء سابقين، وتحليل "نصوص عن الأسرى كتبها أسرى سياسيون سابقون خلال أسرهم" (ص 3)، وتفحص معطيات الأرشيف.

الإطار المرجعي لعمل الكاتب هو النموذج الكولونيالي، ومكانة تجربة السجن في مثل هذا النموذج أو النظام. ومن المهم أن نلاحظ أن التجربة الفلسطينية الجماعية مع السجون تعود إلى أوائل القرن العشرين خلال الحكم الكولونيالي البريطاني وما تلاه من تدخلات أردنية ومصرية في فلسطين

نص مكتوب بخط ناعم جداً يُلفّ ويُطوى بحيث يخفى في شقوق الجسد، الأمر الذي يسهّل تناقله، ويجتنبه رقابة حراس السجن. وبذلك يغدو خارجُ الجسد وداخله، هذا الجسد الذي يخضع للتعذيب والحبس والتجريب، حاملاً رسائل السجن، ويغدو الجسد/النص أداة المقاومة الرئيسية.

وجماعة السجناء التي يجري تفحصها هي أبعد ما تكون عن التجانس على صعيد الأيديولوجيا، ومستوى الحدق، وتحمل المسؤولية اليومية في تدبّر شؤون السجن. وتُظهر الفترة التي يغطيها الكتاب أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تميّزت بأيديولوجيا أشد راديكالية من أيديولوجيا "فتح"، وبميل إلى إضفاء نبرة أيديولوجية على حياة السجن (ربما تغير ذلك بعد عودة منظمة التحرير الفلسطينية غداة توقيع اتفاق أوسلو)، وأن قادة الفصائل المتعددة مارسوا سيطرة محكمة على أعضاء فصائلهم داخل الجماعة الأسيرة. ولا شك في أن المجتمع الأوسع ظل يمارس تأثيره العميق في تعزيز القيم البطريركية على سبيل المثال. يقول الناشر: إن "قضية النوع الجنسي (Gender) هي الأبرز بين التقسيمات الاجتماعية المكوّنة لجماعة السجناء السياسيات قبالة جماعة الأسرى من الرجال" (ص 93).

وشروط السجن هي التي تفرض ذلك الواقع المتقلب الذي يتعين على السجناء الفلسطينيين

التكيّف وفقه من أجل البقاء. هكذا يتميّز عالم الأسرى السياسيين بالحديّة، والارتجال، ونقض الثنائيات، والإلحاح في الممارسة، والعلاقات الديالكتيكية بين المستعمر والمستعمر. فعلى الرغم من تقييد السجناء الفلسطينيين وحبسهم، من حيث المكان والزمان والشروط المادية، فإنهم قادرون على أن يمزجوا عباب وجودهم العسير من دون أن يذعنوا لإملاءات سجانهم.

إذاً، الصورة العامة التي تبرز في هذا الكتاب هي صورة ثبات السجناء الفلسطينيين في السجن الكولونيالي. وتحليل الناشر هو ذلك التحليل الشامل والحادق. وما نحتاج إليه الآن هو تحليل مقارن لعالم المتعاونين الفلسطينيين، كما بدأه هيلل كوهن في كتابه: "عرب صالحون: الاستخبارات السرية الإسرائيلية وعرب إسرائيل، 1948 - 1967" (مطبوعات جامعة كاليفورنيا، 2010)؛ جيش الظلال: التعاون الفلسطيني مع الصهيونية 1917 - 1948 (مطبوعات جامعة كاليفورنيا، 2008)، لأن من دون المتعاونين، ما كان نظام الاحتلال الإسرائيلي في هذا الجانب من الخط الأخضر، والحكم الإسرائيلي على السكان الفلسطينيين في الجانب الآخر، ليحظيا بأي نجاح.

إيليا زريق

ترجمة: ثائر ديب